معنى الذي يجري في سوريا

عدلي صادق
كاتب وسياسي
فلسطين

لطالما تداول المعارضون السوريون، على مر العقود، وكذلك إعلام الحكومات العربية التي خاصمت النظام السوري، عناوين الموضوعات نفسها التي تظهر الآن بعض تفصيلاتها، من خلال مشكلة رامي مخلوف ابن عمته الرئيس بشار الأسد. فبعد عقود من عمل محمد مخلوف وابنه رامي وسائر الأسرة، كرديف ريعي لعائلة الأسد، في ثنائية يتكامل فيها من يقبض على السياسة والأمن، مع من يقبض على المفاصل الرئيسة في اقتصاد البلاد، اختلف الطرفان ووصلا إلى نقطة اللاعودة.

لعلّ الجديد في هذه المشكلة، أن طرفي الشراكة العائلية المديدة، المتكتمين تقليديا على ما يدور بينهما، قد تحولا إلى العلن، وهذا لن يحدث بالنسبة لمخلوف، دون الاستناد إلى قوة بديلة لن تكون غير الروس.

تقارير الصحافة الروسية الملعوبة، التي لا تنطق عن الهوى، تقول إن بشارا أصبح عبئا عليهم، ولا يمكن إعادة تأهيل النظام بوجوده

ومن باب التفصيل، لا يختلف اثنان، على أن من بين طبائع النظام السوري، هو التكتم الشديد على ما يجري داخل الأقانيم الثلاثة: الأسرة والأمن والاقتصاد الموازي، الطفيلي والريعي، الذي يتسم بالفساد من رأسه إلى أخمص قدمه.

لذا تجد كل الأقاصيص التي رويت على أصعدة هذه الأقانيم الثلاثة، ناقصة الإحداثيات، شأنها شأن الوثائق المسربة التي تحير المؤرخين، عندما تظهر متأخرة، وقد شطبت بعض سطورها المهمة. فحتى مشكلة رفعت الأسد، الذي حاول الانقلاب على شقيقه الرئيس حافظ في مارس 1983 لم يحدث أثناءها أي تلاسن علني ولم يقل رفعت ولا أخوه الرئيس المريض آنذاك شيئا في العلن، على الرغم من وجود ثلاثة عناصر ـ أيضا ـ في المشكلة وفي حلها، وهي: المال والطائفية وصلة الدم.

وفي الحقيقة إن ما يحدث اليوم، فيه العناصر الثلاثة نفسها، مع الاختلاف في المقاصد بين رفعت الأسد ورامي مخلوف، فالأول معني بالانقضاض على السياسة، والثاني بالاستمرار في الانقضاض على الاقتصاد. ففي العام 1983 عندما تعرض حافظ الأسد لنوبة قلبية، شكل لجنة مؤقتة لإدارة البلاد أثناء علاجه، ولم يكن رفعت من بين تلك اللجنة (عبدالحليم خدام، عبدالله الأحمر، مصطفى طلاس، حكمت الشهابي، عبدالرؤوف الكسم وزهير مشارقة) وأيامها استشاط رفعت غضبا عندما لم ير في تشكيل اللجنة سوى أن جميع أعضائها من أهل السنة الموالين لأخيه، ما جعله يستنفر الطائفة ويتوجه للانقلاب.

وعندما نهض حافظ من سريره، وتدارك أموره دخل عنصر المال والأمن الشخصي لرفعت ومن معه في تأمين الحل والتسوية المالية، فخرج الانقلابي بما جمعت يداه من اعتصار المجتمع، وفوق ما لديه من أرصدة، حصل على مئتي مليون دولار تطوع القذافي بدفعها، حسب رواية عبدالحليم خدام!

القصة هذه المرة تلامس الفضيحة، لأن جديدها غير مسبوق، على صعيد التطورات الدرامية في بنية السلطة الحاكمة، وما يتخللها من صراعات و"تصفيات" وانشقاقات. فالجديد يتسم بثلاثة عناصر لم يتوقعها أحد. الأول، أن المشكلة انفجرت داخل العصبية العائلية والطائفية للممسكين بتلابيب الحكم. والعنصر الثاني، أن ما ينكشف يؤكد صحة كل ما قيل في الخارج، بخصوص عمليات النهب الواسعة التي تترافق مع الاستبداد الفاجر، مع توافر مفسرين وشهود لما يقوله رامي وتقوله السلطة، كانوا مع النظام وانشقوا عنه. أما العنصر الثالث فهو أن المشكلة ليست مقطوعة الصلة، بما يُدبر للدولة السورية كلها، وليس لنظام الحكم فيها وحسب، وأن العنصر الخارجي يلعب دورا مركزيا في السيناريو وسياقاته!

لعل الأخطر، من بين الفرضيات الكامنة في الخلفيات، هو الدور الروسي، لاسيما وأن سوريا تشهد مرحلة من التحولات التي تديرها القوى المتواجدة على أرضها أو المعنية بجغرافيتها. فالإيرانيون اقتربوا من الرحيل مرغمين وظافرين من الغنيمة بالإياب، ويبدو أن الطرفين الروسي والإسرائيلي، متفاهمان ضمنا وتفصيلا وسرا، بأن الإيرانيين معطوفون على سائر الأصوليات والبيارق الطائفية المتشددة.

أما الرئيس بشار الأسد، فإن تصرفه الأرعن في بدايات الأزمة السورية، عندما كان قادرا على احتوائها بأسهل الطرق، لكنه اختار الحل الأمني وتفجير مجرى الدماء، يتكرر اليوم على الأقل في نظر الروس، الذين باتوا يرونه ذا عقلية خشبية لا تستطيع مغادرة عقلية حافظ الأسد قبل أربعين سنة. ففي 2011 كان بمقدوره أن يعزل عاطف نجيب، رئيس المخابرات السورية في محافظة درعا، وأن يتمثل دور الوطني الحكيم، فيؤدي زيارة إلى المحافظة، أو يدعو وجهاءها لتطييب نفوسهم لكي يخرج فائزا يرفعه السوريون على الأعناق. فلم يكن ذلك يكلفه أكثر من القول ـ ولو كذبا ـ إنه أحال نجيب إلى المحاكمة بتهمتي تعذيب الأطفال بوحشية، ثم التعدي بالشتائم على أعراض أمهات الأطفال في محافظة درعا ذات التقاليد الريفية، وأهمها الذود عن شرف العائلة.

فلا يزال بشار عاجزا عن الاقتناع بأن الدكتاتوريات تخلق واقعا وطنيا داخليا هشا، ليس على مستوى المجتمع وحسب، وإنما أيضا على مستوى المؤسسة العسكرية نفسه، وأن عودة النظام إلى دكتاتوريته، لم تعد ممكنة. فقبل أيام أراد الأمن السوري ممارسة عادته القديمة، بعد أن سيطر على جنوبي غرب البلاد، فأعدم مجموعة شبان أمنوا على أنفسهم بشفاعة مصالحة ميدانية رعاها الروس. ولم تتأخر عائلات القتلى عن الأخذ بالثأر، فأعدمت عددا من الشباب السوريين العاملين ضمن سلك الشرطة. وبعد ذلك ظهر رامي مخلوف، وتحدى بشارا وأخاه وزوجته وحلقته الضيقة، بتأمين روسي، وحدثت اشتباكات داخل البيئة الطائفية والاجتماعية للنظام، ما يجعل بشار الأسد مضطرا لأن يدرك إلى أين أوصل نفسه وبلاده

فالروس يريدون تأمين استقرار سوريا تحت هيمنتهم، لكي يحصلوا على مقابل خسائرهم من ثروة وهم متفاهمون مع إسرائيل، وها هم بعد أن أوشكوا على الإجهاز تماما على المعارضة المسلحة وعاهات الدواعش، يبدأون في تفكيك عصبية النظام من داخله. والإيرانيون سيجدون أنفسهم ظافرين من الغنيمة بالإياب. وتقارير الصحافة الروسية الملعوبة، التي لا تنطق عن الهوى، تقول إن بشارا أصبح عبئا عليهم، ولا يمكن إعادة تأهيل النظام بوجوده، ولديهم مشروع لكي تصادق عليه الأمم المتحدة، لفرض دستور جديد، وإعادة صياغة النظام والعمل على تأهيله بالاتفاق مع الأميركيين. والثمن الذي يتقاضاه الأميركيون وإسرائيل هو طرد الإيرانيين، وأخذ سوريا من يدها إلى تسوية لم يكن حافظ الأسد يرضى بضعفها إيجابيا لصالح بلاده.

كورونا يفشل في إيقاف الحروب العبثية

فاروق يوسف
كاتب عراقي

ما لا يمكن تفهمه على المستوى الإنساني هو أن المتحاربين لم ينظروا إلى عروض الهدنة التي قُدمت لهم بطريقة جادة تليق بإنسانيتهم المفترضة كما لو أنهم تخلوا عن القيم النبيلة والراقية التي كافحت البشرية من أجل تنظيمها وتكريسها وترسيخها ووضعها موضع التنفيذ العملي باعتبارها مقياسا لرقي الإنسان وتحضره وامتلاكه الوعي الذي هو عنوان وجوده وكونه إنسانا.

لقد فضل المتحاربون أن يستمروا في أدائهم الوحشي المشين خشية أن تضع الهدنة بسبب الخوف من تفشي المرض العالمي نهاية لذلك السلوك البغيض الذي يدركون جيدا أن أي لحظة يقظة إنسانية ستؤدي إلى تعطيل آليات عمل ذلك السلوك القائمة على نشر القتل والخراب والدمار والحقد والكراهية.

ففي الوقت الذي شهد العالم تكافلا وتضامنا غير مسبوقين في التاريخ البشري من أجل درء الخطر واحتواء آثاره سارت الأمور في غير مكان في العالم العربي بطريقة عكسية، بحيث بدت واضحة حقيقة الموقف الشاذ الذي يتخذه المتحاربون العرب من مسألة الوجود البشري. وهو ما يمكن أن يعمق من ظاهرة الانفصال العربي عن العالم بكل ما يمكن أن ينطوي عليه ذلك الانفصال من تبعات كئيبة يمكن أن تؤثر سلبا على مستقبل العرب باعتبارهم شريحة بشرية.

لا يمكن هنا إنكار سبب رئيس لتلك الظاهرة وهو أن العالم العربي في جزء كبير منه قد استسلم تاريخيا إلى أسلوب غير راشد في الحكم، يقوم أصلا على الاستقواء بالسلاح بعيدا عن لغة العقل والحكمة والشعور بالمسؤولية وهي اللغة التي تنتج عن إقامة عقد اجتماعي يضمن سلامة الجميع.

لقد أنتجت الفوضى التي تحكمت في طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم لسنوات طويلة وضعا غير عقلاني قاد إلى ما نحن فيه اليوم من جنون مغال فيه، بحيث صار ذلك الجنون وقد أطبق على فئات كثيرة من المجتمع هو الوسيلة الوحيدة التي تتم من خلالها السيطرة على الأمور وتصريفها.

وبغض النظر عما يحدث عالميا فإن المجانين قد قرروا الاستمرار في إحياء حفلتهم على حساب كل ما يمكن أن يقدم العرب أو يعرف بهم باعتبارهم بشرا أسوياء. كأن مستوى الانهيار العقلي قد فاق كل قدرة على إيقافه وليست هناك من وسيلة للقيام بذلك سوى القوة.

وما من قوة جاهزة للقيام بتلك المهمة الآن بسبب انشغال العالم كله بالوباء الذي فتك بحياة أكثر من ربع مليون من البشر. وهو ما يهب المتحاربين العرب فرصة ذهبية للتعبير عن نزعاتهم الوحشية التي ستكون عنوانا لمرحلة هي الأسوأ في تاريخ هذه الأمة.

وإذا ما كانت هناك دول عربية قد تعاملت مع الوضع الراهن بحكمة وإيجابية وعبرت عن شعور عميق بالمسؤولية عن سلامة مواطنيها بل إن للبعض منها قدرا لائقا من الرغبة في تقديم المساعدة الطبية لدول أخرى فإن هناك دولا مثل ليبيا واليمن وسوريا قد أفقدها ارتهان الأطراف المتنفذة فيها إلى السلاح القدرة على أن تستعيد اندماجها بالمجتمع الدولي. ذلك الاندماج الذي فقدته بعد أن سقطت هيبة الدولة والمجتمع معا تحت أقدام رجال العصابات وقطاع الطرق وتجار السلاح.

فشل الفايروس في الحدّ من همجية المتحاربين الذين لا يملكون سببا إنسانيا واحدا لاستمرارهم في القتل إنما يعتبر حلقة فشل عربي جديد يُضاف إلى سلسلة متصلة من حلقات الفشل السياسي الذي أدى إلى انهيار الدولة المدنية والعودة بالمجتمعات إلى عصور بدائية، تحكمها لغة السلاح وحدها.

بسبب ذلك سيكون للتاريخ حكم قاس على العرب.

كلّهم مع الشعب العراقي

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

بدعوته البرلمان إلى الانعقاد، جدّد رئيس البرلمان محمد الحلبوسي، تأكيد وقوفه مع الشعب العراقي، وقال "أكدنا خلال لقائنا رئيس الوزراء المكلف السيد مصطفى الكاظمي على ضرورة تشكيل حكومة قوية تلبي مطالب العراقيين، وتحمي المصالح العليا للوطن".

هذه كانت، وما تزال، هي الشعارات المتكررة التي يرددها جميع الذين ظهروا كالطفح الجلدي على بدن العراق المبتلى، منذ الغزو الأميركي في سنة 2003 وما بعده، دون تبديل ولا تغيير. جميعُهم، مثل محمد الحلبوسي، يرفعون لواء الوطنية والديمقراطية ووحدة الوطن وسيادة القانون، ويخافون على "المصالح العليا للوطن"، ويطالبون بتلبية "مطالب العراقيين".

ترى إذن من الذي مزّق هذا الوطن، وأحرق الزرع والضرع، واستباح الحرمات، وسطى على الثروات والوزارات والسفارات والمصارف والشركات والصفقات والعمولات، وسرق النفط، وهرّب الملايين من الدولارات والدنانير إلى طهران وعمان ودبي ولندن وغيرها من البلاد التي لا تفرق بين مال حلال أو حرام حين تأتي به حقائب الرؤساء العراقيين والوزراء والمدراء وقادة الميليشيات، حتى وإن كانوا موضوعين على لوائح الإرهاب، ومتهمين بغسيل الأموال؟

كما تعلمون، هناك في أميركا حزبان رئيسان يقتسمان الملايين الأميركية الثلاثمئة في كل موسم انتخابي.

الدافع الوحيد الذي يجعل الناخب الأميركي يقترع لهذا المرشح أو ذاك هو برنامجه الانتخابي وحده، ومدى اقتناعه بجديته وصدقه في وعده بتنفيذه، لا بفتوى مرجعية، ولا بأوامر شيخ عشيرة، ولا بدولار أميركي أو تومان إيراني أو ريال عربي وارد من وراء الحدود

وعادي جدا ويحدث كثيرا أن يتراجع الناخب الأميركي عن إعطاء صوته لهذا الحزب ويمنحه للحزب المنافس، ولكن فقط بقناعته بسلوك قادته وسياساته، وبوعي وتصميم ودراية واستقلال في الرأي غير محدود، وليس بجهالة وأمية، وبدوافع طائفية أو عنصرية أو عشائرية أو بالرشوة، كما يحدث عندنا، وفي الدول المصابة بالعاهات المستديمة التي تشبه دولتنا الرشيدة.

بعبارة أوضح، إن الدافع الوحيد الذي يجعل الناخب الأميركي يقترع لهذا المرشح أو ذاك هو برنامجه الانتخابي وحده، ومدى اقتناعه بجديته وصدقه في وعده بتنفيذه، لا بفتوى مرجعية، ولا بدولار أميركي أو تومان إيراني أو ريال عربي وارد من وراء الحدود.

فهل هناك من يستطيع أن يفيدني ويحدد لي أهم الفروق والاختلافات الفلسفية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين برنامج رؤساء الوزراء المتعاقبين، إياد علاوي وإبراهيم الجعفري ونوري المالكي وحيدر العبادي وعادل عبدالمهدي، ثم المرشحين لرئاسة الحكومة، محمد توفيق علاوي وعدنان الزرفي وأخيرا مصطفى الكاظمي؟

وما هو الفكر الذي جعل حزب الدعوة ينشطر إلى أحزاب، والمجلس الأعلى إلى تيارات، والتيار الصدري إلى ميليشيات تحاربه بلا هوادة؟ وما هي الأسس النظرية والتطبيقية التي جعلت الاتحاد الوطني الكردستاني يقاتل الحزب الديمقراطي الكردستاني؟ وما الضرورة النضالية العقائدية التي جعلت هذا السياسي السني يرفع السلاح بوجه نوري المالكي أو هادي العامري اليوم، ثم يعود غدا وفجأة إلى الطاعة، ويدخل بيت قاسم سليماني وهو آمن؟

ألم تروا كيف أن جميع هذه الأحزاب والتيارات والتحالفات والتجمعات المتقاتلة، ثم المتصالحة، دعمت محمد توفيق علاوي، ثم تخلت عنه، وتحمست لعدنان الزرفي ثم أجبرته على الاعتذار؟

وها هي، وكما رأيتم وترون أيضا، رفضت مصطفى الكاظمي وأصدرت ضده بيانات تدمغه بالعمالة لأميركا، وتتهمه بتدبير قتل قاسم سليماني وأبي مهدي المهندس، وتهدد رئيس الجمهورية برهم صالح بالويل والثبور لإقدامه على ترشيحه بالضد من إرادة المجاهدين في الحشد الشعبي، وبالأخص حزب الله العراقي. ثم، ها هي أيضا، وكما رأيتم وترون، قد اتفقت على تمريره في البرلمان، وكأن شيئا لم يكن، فقط حين صدرت إليها الأوامر والتعليمات الأخيرة من سفارة الولي الفقيه في بغداد، أو من سفارة العم دونالد ترامب. أليس هذا نوعا من أنواع مسرح اللامعقول؟

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk